مصر في مطلع القرن الثاني عشر الهجري من خلال كتابات المتصوفة[183]

كانت دعوة الدكتور محمد أنيس لدراسة مصادر تاريخ مصر العثمانية في محاضراته التي ألقاها في القاهرة سنة 1962 من أوائل الدعوات لإلقاء الضوء على المخطوطات التاريخية التي صنفت خلال الفترة 1517-1798، وبعد استعراض بعض مصادر تلك المرحلة استنتج أنيس بأن الكثير من التدهور العلمي الذي ينسب إلى ذلك العهد إنما هو في الحقيقة انعكاس لضعف الدراسات العثمانية في العصر الحديث. ومنذ تلك الدعوة بدأت تظهر مجموعة متواصلة من الكتب التاريخية التي تم تدوينها في القرن السادس عشر وحتى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر، وبدا واضحاً للعيان بأن المدرسة التاريخية المصرية لم تكن قادرة على الاستمرار طوال فترة الحكم العثماني فحسب، بل تميزت كذلك بالتنوع من حيث عناية فئة العلماء وفئة الأجناد بتدوين الأحداث من وجهات نظر مختلفة وبمستويات علمية متباينة، يضاف إليها ما أنتجته مدرسة التراجم وكتب الرحلات من مخطوطات لا تزال مبعثرة في المكتبات الشرقية والأوروبية. وقد قسم محمد أنيس مؤرخي مصر في العصر العثماني إلى ثلاثة أقسام:

- مجموعة المؤرخين العلماء؛ ومنهم ابن إياس وأحمد شلبي وابن أبي السرور والملواني وغيرهم.
- مدرسة التراجم التي ينتمي إليها المحبي والمرادي والجبرتي.
- مدرسة الأجناد التي ينسب إليها أحمد بن زنبل والدمرداش والتي تميل إلى طريقة الكتابة الشعبية.[184]

وبالرغم من استمرارية مدرسة التاريخ المصرية طوال فترة الحكم العثماني واتصالها، إلا أن يد البحث العلمي قد طالت مصادر دون غيرها؛ حيث يمكن ملاحظة انحصار تركيز البحث العلمي على مجموعة من المصادر المنشورة وخاصة منها التي تناولت مطلع القرن الثاني عشر الهجري، والتي وإن كانت توفر

---

[183] نشرت هذه الدراسة في: **مجلة كلية الآداب**، جامعة الاسكندرية، العدد (55)، 2006.

[184] محمد أنيس، **مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني**، معهد الدراسات العربية العالمية، القاهرة 1962، ص 18.

معلومات قيمة عن الأحداث السياسية والاقتصادية،[185] إلا أنه لا بد من التأكيد على وجود مجموعة أخرى من المخطوطات التي لا تقل أهمية عنها والتي يمكن أن تسهم في استكمال صورة مصر العثمانية من جميع جوانبها، حيث لا يزال الغموض يكتنف المصادر التي اعتمد عليها بعض هؤلاء المؤرخين في ما كتبوه عن الفترات التي لم يكونوا معاصرين لها، فقد قام دانييل كريسيليوس بتتبع مصادر الجبرتي في سرده لأحداث تلك الفترة، واستنتج بأن مقدمة كتاب الجبرتي قد اعتمدت بصورة كبيرة على مصادر سابقة له دون الإحالة إليها.[186] والحقيقة هي أن المتتبع للكتابات التاريخية خلال الحقبة العثمانية سيلحظ تفشي ظاهرة سرد المؤرخين للأحداث التاريخية دون الإحالة إلى مصادرها، وتكرار المعلومات بصيغ متشابهة تمنع القارئ من معرفة المصدر الأكثر أصالة من بينها. ولعل المقياس الأسلم في ذلك هو تحديد الفترة الزمنية التي صنفت فيها هذه المؤلفات مما يساعد على تقصي طبيعة العلاقة بينها، والتي من خلالها يمكن تحديد المصدر الأقرب إلى المعاصرة والأسبق في تدوين ذلك الحدث.

ومن هنا يأتي الاهتمام بمصادر المتصوفة التي يمكن أن تحقق إسهاماً كبيراً للبحث العلمي في تاريخ مصر إبان القرن الثاني عشر الهجري، ففي الوقت الذي اهتمت

---

[185] من أهم مخطوطات المنشورة التي تناولت تلك الفترة: يوسف الملواني، **تحفة الأحباب بمن ملك مصر القاهرة من الملوك والنواب**، مخطوط رقم 5623 تاريخ، دار الكتب المصرية، القاهرة، وقد قام بتحقيقها إبراهيم يونس محمد، وحصل بها على درجة الماجستير من كلية الآداب بجامعة الاسكندرية سنة 1981، ثم قام بتحقيقها ونشرها فيما بعد عبد الرحيم عبد الرحم عبد الرحيم (يتوقف المؤلف عند أحداث سنة 1136هـ/1723م). أحمد شلبي بن عبد الغني، **أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات**، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مكتبة الخانجي، القاهرة 1978 (يتوقف المؤلف عند أحداث سنة 1150هـ/1737م). مصطفى بن الحاج إبراهيم تابع حسن آغا عزبان الدمرداشي، **تاريخ وقائع مصر القاهرة المحروسة**، تحيق صلاح أحمد هريدي، دار الكتاب والوثائق القومية، القاهرة سنة 2002، وقد نشرت الطبعة الأولى من الكتاب في الاسكندرية سنة 1989، (يتوقف المؤلف عند أحداث سنة 1153هـ/1741م). أحمد الدمرداش، **الدرة المصانة في أخبار الكنانة**، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1989، (يتوقف المؤلف عند أحداث سنة 1165هـ/1751م). عبد الرحمن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، القاهرة 1904 (يتوقف المؤلف عند أحداث سنة 1236هـ/1821م).

[186] D.Crecelius; (ed.) **Eighteenth Century Egypt: An Account of Arabic Manuscript Sources**, Los Angeles, 1990. p 5.

فيه أغلب المؤلفات التاريخية آنذاك بتدوين الأحداث السياسية والاقتصادية نجد نقصاً كبيراً في تغطية الأوضاع الاجتماعية والثقافية في فترة تعتبر الأكثر أهمية بالنسبة لتطور السلطة الدينية والتي ظهر فيها منصب شيخ الأزهر وازداد تأثير العلماء في الشؤون العامة بمصر. وقد أشار توفيق الطويل إلى أن العهد العثماني قد شهد ازدهار التصوف في مصر لعدة أسباب منها؛ تخصيص الجزء الأكبر من أموال الأوقاف لبناء التكايا والزوايا وتوفير الطعام والمأوى للمجاورين، مما أدى إلى زيادة الطرق الصوفية وانتعاشها، ومن ثم تحولها من نزعة فردية للزهد في الدنيا والتفرغ للعبادة إلى تجمعات كبرى نتيجة لهذا التمويل السخي الذي كانت تجنيه هذه الطرق من الجهات الرسمية وكبار التجار، فازداد عددها حتى بلغ نحو ثمانين طريقة في نهاية القرن السابع عشر.[187]

وكان من أهم نتائج ازدهار التصوف في تلك الفترة هو ظهور العديد المؤلفات في شتى العلوم العقلية والنقلية، حيث يمكن العثور على عدد كبير من هذه المؤلفات، وتقوم هذه الدراسة بتوضيح ذلك من خلال الرجوع إلى ثلاث مخطوطات أساسية تحتضنها دار الكتب بالقاهرة لدراسة بعض ملامحها، وهي على النحو التالي:

أ- أبو الإخلاص جاد الله الغنيمي الفيومي الشافعي، **الدر النضير في آداب الوزير**، (1101هـ/ 1689م)، وهو كتاب عن الوزارة وآدابها من جهة نظر دينية.[188]

ب- عبد الغني بن إسماعيل النابلسي، **الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز**، (1105هـ/ 1693م)، وهي رحلة قام بها المصنف لمصر ووصف مشاهداته فيها.[189]

---

[187] توفيق الطويل، **التصوف في مصر إبان العصر العثماني**، القاهرة، 1945، ص.ص 75 و130.

[188] يمكن العثور على ثلاث نسخ من المخطوط في دار الكتب بالقاهرة وهي: نسخة رقم: 1655 أدب، بخط المؤلف 47 ورقة (14×20 سم)، فرغ من تأليفه يوم الثلاثاء 3 جماد الآخر سنة 1101هـ، نسخة رقم: 3549 أدب، بخط حسين محمد الريس، 42 ورقة (14×20 سم)، وكان الفراغ منها في 16 ذو الحجة 1238 هجرية، وكذلك نسخة رقم: 31 اجتماع تيمور.

[189] تحتوي دار الكتب على عدة نسخ من المخطوط، منها: نسخة رقم 754 جغرافيا، ونسخة رقم 28 تاريخ، ونسخة رقم 732 تاريخ تيمور، وكذلك نسخة رقم 2481 تاريخ تيمور. ولعل النسخة الأهم هي رقم 344 جغرافيا، والتي كتبت بخط حفيد المؤلف: عبد الجليل بن مصطفى بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي في 246 ورقة، والتي فرغ من تدوينها يوم السبت 14 ذو الحجة 1231هـ، وقد قام مركز تحقيق التراث بالهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة بنشر

ج- أبو المواهب مصطفى بن كمال الدين بن علي البكري الصديقي، **النحلة النصرية في الرحلة المصرية،** (1132هـ/1719م)، وهي رحلة أخرى قام بها البكري لزيارة قبور الأولياء وأضرحتهم بمصر.[190]

وتتميز هذه المؤلفات الثلاثة بتناولها لمواضيع لا تتطرق لها كتب التاريخ الأخرى من حيث تركيزها على الأوضاع الاجتماعية بمصر والحياة العلمية والأدبية فيها فضلاً عن تطرقها للحديث عن العلاقة بين السلطة السياسية ورجال الدين. وفي الوقت الذي عنيت فيه الكثير من الأبحاث المعاصرة بمؤلفات النابلسي وبالأخص منها رحلته الشهيرة، إلا أنه يمكن القول بأن البحث العلمي قد أهمل كتاب الغنيمي في الوزارة ورحلة البكري إلى مصر بصورة ملحوظة بالرغم مما يتوفر في هذه المؤلفات من مادة مهمة عن تاريخ مصر، ويمكن تفصيل أهم ما تحتويه هذه المخطوطات فيما يلي:

أ- أبو الإخلاص جاد الله الغنيمي الفيومي الشافعي، الدر النضير في آداب الوزير، (1101هـ/ 1689م):

قام الغنيمي بتأليف الدر النضير وتقديمه كهدية لأحمد باشا الذي كان قد عين وزيراً على مصر في غرة محرم، سنة 1101هـ/ أكتوبر 1689م،[191] وقد ذكر الغنيمي دافعين رئيسين لتصنيف هذا الكتاب:

1- التيمن بتولي الباشا الجديد منصبه في مطلع السنة الأولى من القرن الثاني عشر الهجري والأمل بأن يكون وزير مصر الجديد هو الذي قيضه الله على رأس القرن حتى : "يجدد لهذه الأمة أمر دينها تجديداً وتأصيلاً كما أخبر به الصادق خبراً مقبولا".[192]

2- تقديم العمل للباشا من باب الصلة والإهداء كما جرت العادة في مصر بحق من يتولى هذا المنصب، حيث يقول المصنف: "ولم أقصد بما أوردته غير صلة السرور وبعث نفسي التي هي في قبور الفتور، لأني معترف بأني كجالب التمر إلى هجر،

صورة عن هذه النسخة من المخطوط مع مقدمة لأحمد عبد المجيد هريدي وفهرس أعدته نوال أحمد شاهين، سنة 1986.

[190] تحتوي دار الكتب بالقاهرة على نسخة من هذا المخطوط تحت رقم: (651 جغرافيا) مجاميع، وتقع في 83 ورقة (20×10 سم).

[191] مدة ولايته: 1101هـ/ أكتوبر 1689م - جماد الثانية 1102هـ/مارس 1691م، وقد توفي أحمد باشا بمصر ودفن بالقرافة.

[192] جاد الله الغنيمي، **الدر النضير في أدب الوزير**، نسخة رقم: 3549 أدب، بخط حسين محمد الريس، ص 2.

وموقد المصباح في الظهيرة لمن أبصر، إلا أن العادة جارية بهذا المنوال، سيما والفضل لا يعرفه إلا ذووه من الرجال، إذ لا يحاسب الشخص إلا بما يفهم ولا يسأل عما لا يعلم، والمرجو من درة الوزارة ونخبة الإمارة حسن القبول لهذا الورقات وإن تدانت عن عُلى الدرجات، لا طمس الدهر له معلماً ولا أحل لحماه محرماً".[193]

ويتكون الكتاب من مقدمة وفصلين وخاتمة، يناقش فيه المؤلف صفات الوزير وآدابه وعلاقته بالسلطان، ويفصل في أنواع الوزارة مستخدماً نظرية الماوردي في التفريق بين وزارة التفويض ووزارة التنفيذ، ثم يعرج للحديث عن الطريقة التي يجب أن يتعامل الوزير بها مع الرعية في فصل مطول عن العدل، ويستخدم الكثير من الآيات والأحاديث والقصص والروايات من التراث الإغريقي والفارسي والإسلامي.

أما مؤلف هذا الكتاب فهو أبو الإخلاص جاد الله الفيومي الشافعي الذي يعد من أبرز علماء مصر في القرن الثاني عشر الهجري، ويبدو أن **الدر النضير** كان من بواكير أعماله، فقد ذكر له البغدادي في **هدية العارفين** جملة من الكتب التي صنفها دون تحديد سنة ولادته أو وفاته، إلا أن البغدادي يشير إلى أنه قد فرغ من تأليف أحد كتبه في العقيدة سنة 1155هـ/1742. وله عدد من التصانيف في العقائد والأدب ومما نشر له كتاب: **عنوان الأدب بشرح لامية العرب**، تحقيق وتقديم محمود محمد العامودي.[194]

ولهذا المخطوط أهمية كبيرة في استقصاء عدة حقائق، من أهمها؛ وجود علاقة بين ما كتبه الغنيمي في **الدر النضير** مع مقدمة الجبرتي لكتابه **عجائب الآثار**، حيث ورد في مقدمة الجبرتي عبارات أخذت بالنص من كتاب الغنيمي، مما لا يدع مجالاً للشك بأن الجبرتي كان على اطلاع بما كتبه سابقه، ومن هذه الفقرات:

"وقد قيل: من عدل في سلطانه استغني عن أعوانه، وقيل: عدل السلطان أنفع للرعية من خصب الزمان... ويقال: حق على من ملكه الله على بلاده وحكمه في عباده أن يكون لنفسه مالكاً وللهوى تاركاً وللغيظ كاظماً وللظلم هاضماً، وللعدل في حالتي الرضا والغضب مظهراً، وللحق في السر والعلانية مؤثراً، وإذا كان كذلك ألزم النفوس طاعته، والقلوب محبته، وأشرق بنور عدله زمانه، وكثر على عدوه أنصاره وأعوانه ولقد صدق من قال:

---

[193] المصدر السابق، ص 4.

[194] إسماعيل باشا البغدادي، **هدية العارفين في أسماء المؤلفين**، اسطنبول 1951، ج1، ص 249.

يا أيها الملك الذي   بصلاحه صلح الجميع
أنت الزمان فإن عدلــت فكله أبـداً ربـيع
وقال عمرو بن العاص: ملك عادل خير من مطر وابل".[195]

كما يساعد المخطوط على تقصي نظرة رجال الدين نحو السلطة السياسية التي أسسها العثمانيون منذ انهيار دولة المماليك وتحول مصر على إثر ذلك من مركز للسلطنة إلى ولاية عثمانية يعين باشواتها من قبل السلطة المركزية باسطنبول، وذلك في فترة لا تكاد توجد فيها أي مادة فقهية تتناول موقف رجال الدين من الوضع السياسي بمصر ومنظورهم للعلاقة بين الباشا والسلطان (الملك والوزير، بمصطلحات الغنيمي). كما يتضمن المخطوط مادة وافية عن الحكم وآدابه وطرقه وأصنافه، ولذلك فهو نادر من نوعه، في فترة كانت أغلب الكتابات الدينية تركز على المتون الفقهية وشروحها.

ومن خلال **الدر النضير** يمكن كذلك إلقاء الضوء على شخصية أحمد باشا الذي كان معروفاً لدى أهل مصر قبل أن يتولى منصب الباشوية سنة 1101هـ/1689م، فقد عرفه المصريون منذ عام 1077هـ/1667م، عندما كان كيخية[196] إبراهيم باشا،[197] وكان أحمد كيخيا آنذاك قد اكتسب سمعة سيئة بصفته محباً لجمع المال، كما كان يتمتع في الوقت نفسه بشخصية قوية حيث استطاع أن يمارس نفوذاً كبيراً على الباشا، ويصف علي بن رضوان العلاقة بين الباشا وأحمد كيخيا على النحو التالي:

"وكان [إبراهيم باشا] رجلاً اختياراً أنّاساً ملاحاً وجيهاً صايماً مصلياً، ليس له التفاتة إلى أمور الدنيا، وكان له كتخدا يسمى أحمد فسلم إليه الأمر كله والخزينة،

---

195 يمكن مقارنة ما ورد في مقدمة **عجائب الآثار**، مصدر سابق، ج 1، ص 21، مع ما ورد في **الدر النضير**، مصدر سابق، ص.ص 33 و49.

196 **الكيخيا:** هو وكيل الباشا بمصر، ويطلق عليه أيضاً لقب الكتخدا، وقد أصبحت هذه الكلمة تطلق على كل من ينوب محل رئيس فرقة عسكرية أو منصب إداري. مصطفى رمضان، **مصادر تاريخ مصر الحديث**، جامعة الأزهر، القاهرة 1978، ص 83.

197 مدة ولايته: 20 شعبان 1077- 17 جماد الأول 1079هـ/ 15 إبريل 1667- 22 أكتوبر 1668م

وكان متلاعباً متلوناً والذي لا يفعله هو بيده لا يتم أمره، وزاد في أخذ الرشوات عياناً وانقلب الديوان في منزله".[198]

ولدى وفاة إبراهيم باشا تغير وضع أحمد كتخدا، حيث عامله الباشا الجديد بفظاظة فوضعه في سجن القلعة وطلب منه أن يدفع جميع المستحقات المالية على إبراهيم باشا، وبعد جلسة عاصفة تعرض فيها أحمد كتخدا للضرب أعيد إلى سجنه، ثم تمكن من الفرار وكتب خطاباً سرياً للسلطان يطلب منه تعيينه باشا على مصر، ثم قبض عليه مرة أخرى وأرسل مخفوراً إلى اسطنبول، ويصف على بن رضوان هذه الأحداث بقوله:

"ثم في ثاني يوم أحضر أحمد كتخدا وعاقبه وطالبه بالميري فكلمه كلام بارد فرده بالسجن ... وفي 22 شهر ربيع الأول حضر مصطفى آغا بطلب ألف ومايتين كيس من أحمد كتخداء الباشا، وكان أعرض إلى حضرة الدولة الشريفة بذلك ويعمله باشا بمصر، فطلبوا منه ذلك فأنكر فوضعوه بالسجن وضيقوا عليه فأصبحوا ولم يجدوه بالسجن، هرب ليلة تاريخه، فنادى منادي الوزير كل من وجده وأتى به ننعم عليه بمائة عثماني، فلم يوقعوا له على خبر ... وفي شهر تاريخه ورد خبر بأنهم قبضوا على أحمد كتخدا الذي هرب في وادي التيه وسبب ذلك أن شيخ العرب شاهين كان له أربعين عثماني في بلك المتفرقة فلما هرب من العرقانة صادفه المذكور فقبض عليه وأتى به إلى الوزير".[199]

وفي اسطنبول تمكن أحمد من إقناع السلطان بتعيينه في منصب الباشا بمصر وذلك بعد إحدى وعشرين عاماً من تلك الحادثة، حيث رجع إلى مصر سنة 1101هـ/1689م، وتحسنت سمعته بعد توليته بمنصب الباشا، إذ تذكره المصادر

---

[198] علي بن رضوان، **زبدة اختصار تاريخ مصر المحروسة**، مخطوط بمكتبة المتحف البريطاني، رقم:Add. 9972، ص 32.

[199] المصدر السابق، ص 34، ويمكن تتبع نفس القصة في: أحمد شلبي بن عبد الغني، **أوضح الإشارات**، مصدر سابق، ص.ص 164-168.

بعد ذلك بالثناء لمحاربته العربان في الأقاليم ووضع الحد لفسادهم،[200] وكذلك لترميمه جامع المؤيد.[201]

وعموماً فإن المخطوط يقدم لنا معلومات مهمة عن العلاقة بين رجال الدين في مصر والباشوات المعينين من قبل السلطة المركزية باسطنبول، حيث يذكر الغنيمي أن العادة قد جرت بتقديم مثل هذه الإهداءات العلمية إلى الباشوات لدى تعيينهم، كما يتوجه المصنف إلى الباشا بمدائح كثيرة، منها ذكره بصفة العلم والفقه، والجدير بالذكر أنه لا يمكن تقلد منصب الكيخيا إلا لمن لديه إلمام بالكثير من العلوم، فلم يكن أحمد باشا غريباً على أهل مصر الذين عرفوه منذ فترة طويلة وكان يبادل العلماء المجاملة والاحترام كما يظهر من ترميمه لجامع المؤيد، ولم يكن أحمد هو الباشا الوحيد الذي عرف عنه اهتمامه بالعلم والعلماء في مصر، فقد كان كثير من باشوات مصر يتحدثون اللغة العربية ويجالسون أهل العلم ويتبادلون معهم القضايا الفقهية والأدبية، وقد ذكر أحمد شلبي بأن أحد باشوات مصر، وهو عبد الله باشا كوبروللو قد أمضى في القاهرة بعد عزله سبعة أشهر يطلب العلم على علماء مصر سنة 1144هـ/1724م.[202]

ولعل المادة الأكثر أهمية في الكتاب هي الخاتمة التي خصصها الغنيمي للحديث عن ولاية الحرب وتدبير الجيش، حيث تتضمن إشارات واضحة إلى أوضاع الجيش في مصر خاصة وفي الدولة العثمانية بصفة عامة، فيلفت الغنيمي انتباه أحمد باشا إلى ضرورة السيطرة على الحامية العثمانية الموجودة بمصر في تلك الفترة الحساسة

---

[200] تحدث علي بن رضوان عن وفاة أحمد باشا بقوله: "ومن محاسنه أنه نزل وقاضي العسكر وكشف على جامع المؤيد بباب زويلة فوجده يحتاج إلى العمارة والترميم فأمر بعمارة ما يحتاج إليه من العمارة، ولم يمهله الأجل إلى أن يتم عمارته وقيل إنه أوصى كتخدائه من بعده بعمارته من بعده رحمة الله عليه، وتوفي أحمد باشا بعد مرضه في 12 شهر جماد الآخر سنة 1102". **زبدة الاختصار**، مصدر سابق، ص.ص 48، كما يمكن تتبع نفس النسق مع فروقات بسيطة في رواية أحمد شلبي: "ومن خيرات أحمد باشا ترميم الجامع المؤيد، وقد كان تداعى إلى السقوط فأرسل كشف عليه بشيخ الإسلام ثم شرع في العمارة إلى أن أتمه في أحسن حال، جزاه الله أحسن الجزاء، ثم بعد ذلك مرض وتوفي إلى رحمة الله تعالى في ثاني عشر جماد الثاني سنة 1102". **أوضح الإشارات**، مصدر سابق، ص 186.

[201] **جامع المؤيد:** أنشأه السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي الظاهري، وكان الفراغ من بناءه في ربيع الأول 819هـ/ مايو 1416م، ووقف عليه عدة مواضع بمصر والشام. علي مبارك، **الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة**، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1969، ج5، ص 124-128.

[202] أحمد شلبي، **أوضح الإشارات**، مصدر سابق، ص. ص 575-576.

ذاكراً أهم العوامل التي تؤدي إلى فساد الجيش، وملمحاً إلى الأوضاع التي كان المصنف معاصراً لها، فقد شهدت تلك الفترة انعدام استقرار السلطة المركزية في اسطنبول بسبب تكرر تمرد فرقة الانكشارية وعزلهم للسلاطين،[203] وكان لعاصمة الدولة تأثير واضح على الأقاليم، حيث دأب العسكر المصري على عزل الباشوات ومطالبة السلطة المركزية باستبدالهم بين الفينة والأخرى،[204] وللتعامل مع هذه الإشكالية التي هددت أمن البلاد يتناول الغنيمي أسباب فساد الجيش في سبعة نقاط يمكن تلخيصها فيما يلي:[205]

1- "أن يجمعوا جمع اضطرار لا جمع اختيار، فيؤخذ فيهم العاجز والضعيف والجبان والعسر الانقياد ومن لا خبرة لهم بالحرب".

2- "تأخير أرزاقهم عنهم، فإن ذلك يكون سبب الخلاف والشغب بينهم".

3- "الاستقصاء عليهم وقت الحاجة ومحاسبتهم بالماضي".

4- "تجاوز الملك حد الانتقام في الذنب للجاني منهم، فإن لكل ذنب عقوبة ولكل مجرم حد".

5- "إهمال مكافأة المحسنين".

6- "تفقدهم وقت الحرب في سلاحهم".

---

[203] من أهم السلاطين الذين عزلوا من قبل الانكشارية في تلك الفترة: السلطان مصطفى الأول؛ الذي لم يلبث في الحكم سوى ثلاثة أشهر ثم عزل من قبل الانكشارية في ربيع الأول سنة 1027هـ/فبراير 1618م، والسلطان عثمان الثاني؛ الذي قتل على يد زعماء الانكشارية في 9 رجب 1031هـ/ 20 مايو 1622، ولم يكن قد تجاوز الثامنة عشر من عمره، والسلطان إبراهيم الأول؛ الذي عزله جنود الانكشارية في 18 رجب 1058/ 8 أغسطس 1648م، ثم قتلوه بعد ذلك بعشرة أيام وولوا مكانه ابنه محمد الذي لم يكن قد أتم السابعة من عمره وذلك حتى لا يتمكن من الانتقام منهم أو الحد من سلطتهم، ثم قاموا بعد ذلك بعزل السلطان محمد الرابع؛ في 2 محرم 1099هـ/8 نوفمبر 1687م. وكذلك السلطان مصطفى الثاني؛ الذي عزل على يد الانكشارية في 2 ربيع الآخر 1115هـ/15 أغسطس 1703م. محمد فريد بيك المحامي، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، دار الجيل، بيروت، 1977، ص.ص 122-142.

[204] من الباشوات الذين عزلوا في تلك الفترة: مقصود باشا؛ عزله العسكر سنة 1053هـ/1643م، محمد باشا؛ عزله العسكر سنة 1057هـ/1647م، أحمد باشا؛ عزله العسكر سنة 1086هـ/1676م، اسماعيل باشا؛ عزله العسكر سنة 1109هـ/1698م، وكذلك خليل باشا؛ الذي عزل سنة 1123هـ/1711م، ورجب باشا؛ 1133هـ/1721م، وبكير باشا؛ 1142هـ/1730. أحمد شلبي، **أوضح الإشارات**، مصدر سابق، ص.ص 150-152، 175، 202، 250، 315، و555.

[205] جاد الله الغنيمي، **الدر النضير في أدب الوزير**، مصدر سابق، ص. ص 78-82.

7- "إشعار الملك إياهم أنه اطلع على جناية منهم قادحة في الملك أخفوها".

والمتتبع لأسباب تمرد العسكر في مصر يجد بأنها لا تخرج عما ذكر الغنيمي، فقد كان أهم أسباب التدهور في الحامية العثمانية هو تغلغل الأفراد غير المدربين من الفلاحين والبدو وبعض المماليك الذين كان سادتهم يدخلونهم في السلك العسكري بغية تحقيق المزيد من النفوذ، ولذلك فقد كان شعور عدد كبير من هؤلاء الجند بالولاء لأسيادهم أكبر من ولائهم لأوجاقاتهم، فنتج عن ذلك ظهور الانقسامات داخل الحامية المصرية، كما كان لتأخير الرواتب والأرزاق عن الجند سبباً كبيراً في حدوث الأزمات بينهم وبين الباشاوات بمصر، فضلاً عن تدني رواتبهم عبر مرور السنين وعدم تزويدهم بما يحتاجون إليه من عدة وعتاد للقيام بمهامهم وخاصة في الأقاليم.

ويمكن القول بأن الدر النضير يحتوي على مادة قيمة تختلف اختلافاً نسبياً عما تقدمه كتب التاريخ آنذاك، والتي كانت تكتفي بسرد الأحداث التاريخية دون التعليق عليها أو تحليلها، بينما يقدم لنا هذا المخطوط معلومات قيمة توضح لنا معالم مهمة في تركيبة الكيان السياسي في مصر من حيث علاقة السلطة المركزية مع الأقاليم وخاصة منها مصر التي كانت أكبر الولايات العثمانية، وكذلك العلاقة بين الباشا وأهل مصر من وجهة نظر رجال الدين، وتحليل أسباب تمرد العسكر وسبل السيطرة عليهم، كما أن المخطوط يساعد على تقصي مصادر العديد من المؤلفات التي جاءت بعده ومنها مقدمة الجبرتي التي استقى بعض فقراتها من أعمال الغنيمي.

ب- عبد الغني بن إسماعيل النابلسي، الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، (1105هـ/ 1693م):

وتسمى كذلك باسم: **الرحلة الكبرى** لأن النابلسي قام بكتابة تفاصيل رحلات أخرى منها؛ **الرحلة الوسطى** إلى القدس وسماها: "الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية"، وكذلك **الرحلة الصغرى** إلى لبنان وسماها: "حلة الذهب والإبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز"، ولكن **الرحلة الكبرى** كانت الأهم والأكثر تفصيلاً من بين هذه الرحلات، وقد حظيت باهتمام عدد كبير من الباحثين، فنشرت الأجزاء الخاصة بها عن الشام، وتحدث عنها عبد الكريم رافق في بحثه حول دور مصادر المخطوطات السورية في تاريخ مصر في القرن الثامن عشر،[206] والذي أشار فيه إلى نشر بعض فصول من المخطوط في دمشق سنة 1881م، وكذلك في القاهرة سنة 1906م،

---

[206] ‘Abd al-Karīm Rāfiq, *‘Syrian Manuscript Sources for the History of Eighteenth-Century Egypt’* In D. Crecelius (ed.), **Eighteenth Century Egypt,** Los Angeles, 1990, pp. 103-114.

كما نشرت الأجزاء الخاصة بالحجاز وكتبت عنها العديد من البحوث والمقالات،[207] وذلك بخلاف الجزء الخاص بمصر من هذه الرحلة والذي لم يستحوذ على نفس القدر من الاهتمام في البحوث التاريخية حول تاريخ مصر في القرن الثامن عشر.

وقد كان للمصنف دور كبير في جذب اهتمام الباحثين لهذه الرحلة بسبب شهرته، حيث يعد عبد الغني بن إسماعيل النابلسي الحنفي الصالحي (1050-1143هـ/1641-1731م) من أبرز علماء عصره، فقد ترجم له الجبرتي في **عجائب الآثار** ضمن وفيات أعيان القرن الثاني عشر الهجري، بقوله:

"مات الإمام الكبير والأستاذ الشهير صاحب الأسرار والأنوار الشيخ عبد الغني بن إسماعيل النابلسي الحنفي الصالحي، ولد سنة 1050 وأحواله شهيرة وأوصافه ومناقبه مفردة بالتأليف ... توفي رضي الله عنه سنة 1143 عن ثلاث وتسعين سنة".[208] وسرد له البغدادي في هدية العارفين أكثر من ثلاثمائة كتاب في مختلف العلوم.[209]

وقد بدأ المؤلف رحلته يوم الخميس غرة المحرم سنة 1105هـ/سبتمبر 1693م، من دمشق ووصل مصر بعد 99 يوماً أمضاها في بلاد الشام، ثم مكث بمصر 83 يوماً، وغادرها بعد ذلك متجهاً نحو الحجاز، وانتهت رحلته في شهر صفر 1106هـ/ سبتمبر 1694. وتعتبر هذه الرحلة من أشمل كتب الرحلات التي ظهرت في مطلع القرن الثاني عشر الهجري وأكثرها تفصيلاً، ويعود السبب في ذلك إلى المستوى العلمي الراقي للعلامة النابلسي الذي بذل جهداً كبيراً في تأصيل مادة كتابه ورجع إلى عدد كبير من كتب الجغرافيا والرحلات وتاريخ البلدان ومعاجم اللغة وغيرها من المصادر، بالإضافة إلى ما تميز به المصنف من دقة في الوصف وإسهاب في الشرح وتفصيل في نقل مشاهداته بمصر، فقد عكف على تدوين رحلته هذه منذ عودته إلى دمشق سنة 1106هـ/1694م إلى أن انتهى منها بعد أربع سنوات حيث ذكر بأنه انتهى من تدوينها سنة 1110هـ/1698م.

ومن خلال قراءة رحلة النابلسي هذه يمكن للقارئ أن يخرج بصورة مختلفة للغاية عن الأوضاع في مصر بالمقارنة المؤلفات التاريخية المعاصرة له والتي أسهبت في

---

[207] نشر حمد الجاسر تسع مقالات بعنوان: "المدينة المنورة في مطلع القرن الثاني عشر الهجري كما يصفها النابلسي في رحلته"، انظر: المجلد الأول من **مجلة العرب** 1386هـ-1387،

[208] عبد الرحمن الجبرتي، **عجائب الآثار**، مصدر سابق، ج 1، ص 232.

[209] إسماعيل البغدادي، **هدية العارفين**، مصدر سابق، ص.ص 590-594، وانظر ترجمته كذلك في: عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، ج 4، ص 271.

الحديث عن صراع المماليك وتمرد فرق الحامية والحملات ضد العربان وغيرها من الأحداث الدامية بمصر،[210] حيث ينقل لنا المؤلف صورة مختلفة عن الحياة اليومية في القاهرة، ويقدم تصوراً أكثر وضوحاً عن العلاقة بين علماء مصر ورجال السلطة في القاهرة، فقد نزل النابلسي في القاهرة ضيفاً على الشيخ زين العابدين البكري شيخ السادة البكرية في القاهرة آنذاك،[211] في قصره الكبير المطل على بركة الأزبكية التي يسكن حولها وجهاء مصر وأعيانهم، وأسهب في وصف كرم مضيفه وحسن استقباله، مشيراً إلى وجود علاقة قوية بينه وبين علي باشا[212] الذي كان: "يرسل إليه في كل يوم سبت من بكرة النهار فيدعوه إلى الاجتماع به في جهة معينة بقصد المنادمة والملاطفة والاستخبار".[213]

وقد تكررت زيارات المصنف لعلي باشا، الذي قابله يوم السابع والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة 1105هـ، ودار الحديث بينهم حول بعض الفوائد العلمية واللطائف الأدبية،[214] ثم حظي بزيارة ثالثة ذكر فيها معلومات مهمة عن العلاقة بين العلماء والباشوات في مصر بقوله:

---

[210] انظر على سبيل المثال: وصف المعارك التي دارت بين أمراء مصر سنة 1071هـ/1660 في: إبراهيم بن أبي بكر الصوالحي العوفي الحنبلي، **تراجم الصواعق في واقعة الصناجق**، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1986، وكذلك وصف المعارك التي دارت في القاهرة سنة 1123هـ/1711م في: الشيخ علي الشاذلي، "ذكر ما وقع بين عساكر مصر المحروسة"، تحقيق عبد القادر طليمات، **المجلة التاريخية المصرية**، مجلد 14 (1986)، ص.ص 321-403.

[211] **السادات البكرية:** يرجع نسبهم إلى أبي بكر الصديق، وكان لهم مكانة كبيرة في المجتمع المصري إبان العصر العثماني، وكانوا يدعون لحضور المجالس الرسمية كاجتماعات الديوان والجمعيات. مصطفى رمضان، **مصادر تاريخ الحديث**، مصدر سابق، ص 75.

[212] مدة ولاية علي باشا: 22 رمضان 1102- 28 محرم 1107هـ/ 28 مايو 1691- 8 سبتمبر 1695م، وكان علي باشا على علاقة قوية مع الشيخ البكري حيث تشير المصادر بأن الباشا قد لجأ إلى البكري للوساطة بين وجهاء فرقة الانكشارية بسبب تمردهم على كوشك محمد، فأوقع الشيخ البكري بينهم الصلح وتعهد بضمان كوشك محمد شخصياً: "أن لا يقع منه ضرر عليهم"، كما تذكر المصادر دعوة علي باشا للبكري في مناسبات كثيرة تتعلق بالأوضاع السياسية والاقتصادية خلال فترة حكمه. انظر علي بن رضوان، **زبدة الاختصار**، مصدر سابق، ص 55.

[213] عبد الغني النابلسي، **الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز**، تقديم أحمد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1986، ص 181.

[214] المصدر نفسه، ص 202.

"وكان [الباشا] أرسل إلى الشيخ زين العابدين حفظه الله تعالى يدعوه إلى مجالسته كما هو عادة الوزراء بمصر في كل جمعة مرة أو مرتين يطلبون أحد البكريين للمجالسة في منتزهاتهم وخلواتهم وفراغ خواطرهم وكان الحال كذلك من زمان الشيخ محمد والد الشيخ زين العابدين ومن قبلهما من البكريين كما أخبرنا بذلك الشيخ زين العابدين حفظه الله تعالى وكان يسأل عنا الوزير حفظه الله إذا لم نذهب مع الشيخ زين العابدين إلى حضرته، فلزم تقيدنا بذلك مدة إقامتنا بمصر فدخلنا عليه فتلقانا بالإجلال والإعظام والإكرام والاحترام وجلسنا عنده يسألنا عن المسايل وعن أحاديث في الأحكام والفضايل إلى آخر النهار".[215]

وبعيداً عن أجواء السياسة ينقل لنا النابلسي صورة مختلفة عن كبار رجال السلطة بمصر من حيث اهتمامهم بالعلم وجمع الكتب وإكرام العلماء، وما كان يدور في اجتماعاتهم من أحاديث علمية وحوارات أدبية، حيث أتيح له زيارة كاتب الخزنة عثمان أفندي الذي كان من هواة جمع الكتب ولديه كاتب ينسخ له كتب العلم، وحصل منه على نسخة من كتاب: "الأحاديث القدسية للمناوي شارح الجامع الصغير" فأمر النابلسي أحد مرافقيه بنسخه وإرجاعه إلى كاتب الخزنة،[216] كما اتسمت زيارته لمنزل مصطفى كتخدا العساكر المصرية بالمذاكرات الأدبية والمباحثات العلمية وإنشاد الأبيات الشعرية، وكانت هذه الجلسة بحضور: "الأكابر والأعيان والعلماء والأفاضل ذوي الشهامة ورفعة الشان"، واستمرت هذه الزيارة منذ الصباح الباكر وحتى ساعة متأخرة من الليل.[217] وقد أعجب النابلسي من طريقة استقبال مراد بيك الدفتردار،[218] وهو أحد أهم صناجق مصر حيث قام بدعوته في منزله بسبيل علام، وامتدحه بأنه:

"فخر الأكارم والأماجد ومعدن المكارم والمحامد مراد بيك، من أعيان الصناجق المصرية ومفاخر الدولة الكاملة السنية، وهو من المشهورين بالكرم وحسن الأخلاق بين الرفاق، إلى جهة سبيل علاّم بتشديد اللام، وهو مكان عن مدينة مصر المحروسة نحو ساعتين، ثم حين قاربنا الوصول مقدار ثلثي المسافة وإذا

---

[215] المصدر نفسه، ص 257.

[216] المصدر نفسه، ص 219.

[217] المصدر نفسه، ص 253.

[218] **مراد بيك الدفتردار (ت 1107هـ/1695):** تابع أوزبك بيك، من أعيان البيت القاسمي برز من أتباعه إبراهيم بيك أبو شنب، وقانصوه بيك قائمقام، وإيواز بيك الكبير الذي تولى منصب حاكم جدة وبعد ذلك تولى إمارة الحاج. بشير زين العابدين، **النظام السياسي لمصر العثمانية**، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة لندن 1999، ص 232.

بمراد بيك المذكور خرج لملاقاتنا مع جماعته نحو مائة فارس وهم يركضون قدامنا وخلفنا بخيولهم حتى وصلنا إلى سبيل علام ونزلنا هناك، ثم صعدنا إلى ذلك القصر العالي المطل على تلك الجهات المطلقة وجلسنا بالإعزاز والإكرام".[219]

ثم يصف النابلسي تلك الزيارة وما وقع فيها من نقاشات علمية استمرت حتى صلاة العصر، ولدى مغادرة المصنف أصر مراد بيك على مصاحبته نحو ساعة في طريق العودة إكراماً له وللوفد المصاحب له. وتكررت كذلك زيارات النابلسي لأمير الحاج إبراهيم بيك أبو شنب،[220] تابع مراد بيك، الذي كان يستقبله باحترام وتقدير ويتحدث معه في شؤون الحج وسلامة الطريق إليه من مصر.[221]

أما الجانب الآخر من رحلة النابلسي فهو وصفه للحياة العامة بمصر بعيداً عن أجواء الصراعات والأزمات، فالمصنف يتحدث عن حالة من الاستقرار والازدهار ووفرة البضائع وكثرة المنتزهات، ويسهب في وصف مختلف الأحياء التي زارها بمصر، وعندما يصل إلى وصف مقبرة القرافة يتحدث عن كثرة المساجد التي تحمل إليها: "الحلاوات واللحومات والأطعمة ولا تكاد تخلو القرافة من طرب ولا سيما في الليالي المقمرة وهي معظم مجتمعات أهل مصر وأشهر منتزهاتهم".[222]

ويشير في حديثه إلى بعض المنتزهات ومنها منتزه القصر العيني الذي يصفه بأنه: "منتزه لطيف الأوصاف متسق الأكناف فيه أنواع الفواكه والثمار ومحفوف بالرياحين والأزهار، وفيه دولاب إخراج المياه بالدواب، وهناك بركة من الماء وسواقي جارية رقيقة الهواء، فجلسنا تحت تلك العرايش من العنب وحولنا هاتيك الغصون المايلة ميل العرايس".[223]

ويعد وصف النابلسي لمقر الباشا والحامية العثمانية بقلعة الجبل من أجمل ما ورد في كتابه حيث لاحظ بأن القلعة:

"واسعة كبيرة مشتملة على حارات ومحلات للناس ومشتملة على سرايا لوزير مصر وللعسكر المصري، وفيها جوامع ومساجد وحمامات كأنها بلاد

---

[219] عبد الغني النابلسي، **الحقيقة والمجاز**، مصدر سابق، ص.ص 281-282.

[220] **إبراهيم بيك أبو شنب (ت 1130هـ/1717م):** تابع مراد بيك الدفتردار، من أعيان البيت القاسمي، تولى العديد من المناصب الإدارية في مصر منها الدفترداري والقائمقامية وإمارة الحاج، وقد آلت إليه زعامة البيت القاسمي بعد وفاة سيده مراد بيك. بشير زين العابدين، **النظام السياسي لمصر العثمانية**، مصدر سابق، ص 232.

[221] عبد الغني النابلسي، **الحقيقة والمجاز**، مصدر سابق، ص.ص 273.

[222] المصدر نفسه، ص 187.

[223] المصدر نفسه، ص 204.

مستقلة، ثم إن ذلك الماء الذي يستخرج إلى أرض قلعة الجبل يجيء من ماء النيل على قناطر عاليات مبنيات على عضايد من الأحجار من مسافة بعيدة والماء من النيل يرفع بمقدار إلى القناطر ويجري فيها وذلك من أعاجيب الدهر".[224]

ثم زار عدة مساجد في القلعة أشهرها مسجد سارية، وشاهد في قصر يوسف العمال الذين يصنعون الكسوة، ووصف طريقة حياكتها بالحرير واستخدامهم لمجسمات خشبية على شكل الكعبة يستخدمونها لقياس الكسوة عليه، كما لاحظ وجود عمال آخرين يحيكون البسط للمسجد النبوي وغيره.[225] وقد كان النابلسي قد وصف بعض بيوت الطبقة الأرستقراطية وأبدى إعجابه بمنزل قاضي عسكر أفندي المطل على بركة الأزبكية حيث استضافه في قاعة:

"مفروشة بأنواع الأحجار وقد أوقدت الشموع حتى كان ذلك الليل كأنه النهار، فوصلنا إلى ميدان واسع مفروش بالرخام والمرمر في ألوان كأنه قلائد العقيان، وهناك إيوان يقابله آخر أوسع من صدر الكرام... ورأينا الثريات من القناديل المشعولة ما تبقي ببهجته النفوس والعيون مشغولة، وانطلقت مباخر العود وقامت مواسم الشهود".[226]

ولم يقتصر المصنف على زيارة بيوت الطبقة الارستقراطية، بل زار الأحياء الفقير في القاهرة ملاحظاً أثناء تجواله بأن:

"غالب بيوت مصر ثلاث طبقات وبعضها خمس طبقات متواليات بعضها فوق بعض، وفي ذلك قلنا هذه الأبيات:

وقصر فوق قصر فوق قصر ثلاث غالباً ببيوت مصر
معمرة بأحجار وطوب جديد بعضها وقديم عهد
مطلات شبابيك لها من جهات الحسن تقصر أي قصر
لها درج من الأحجار يبنى عجيب الوضع ملتف بخصر".[227]

وتحدث كذلك عن الأوضاع العامة في الأسواق وفي الحمامات العامة، حيث دخل إلى حمام في باب زويلة:

"وقد غص بالناس وعض الداخل إليه بأنياب وحشته والأضراس، وحياضه طوال وهي مملوءة بالرجال فقال لي بعض الصناع فيه إن جميع مائه مستعمل فانتظر هذا الأنبوب ليخرج لك الماء المطلق من فيه، فإذا الناس واقفون حوله

---

[224] المصدر نفسه، ص 248.

[225] المصدر نفسه، ص 250.

[226] المصدر نفسه، ص.ص 254-255.

[227] المصدر نفسه، ص 284.

ينتظرون وهو أنبوب مرتفع في حايط وعليه الناس مزدحمون، فخرجت مسرعاً ولم أبلّ أديمي وقلت يا ألمي إن كان هذا نعيمي".[228]

ويستطيع القارئ استخلاص معلومات مهمة يضيق المقام بتفصيلها عن المواضيع الفقهية التي كانت تدور آنذاك، بالإضافة إلى تفاصيل الحياة الاجتماعية وطرق الضيافة ومختلف أنواع الأطعمة التي كانت تقدم. ويبدو بأن الأوضاع في الأقاليم كانت مختلفة عن حالة الاستقرار التي شاهدها النابلسي في القاهرة، ففي منطقة العريش رأى النابلسي إحدى القوافل القادمة من الشام تتعرض للنهب من قبل البدو: "والعربان يحيطون بهم كالجراد المنتشر والأسماك ينتهشونهم بالأفواه والأيدي وكل واحد منهم لا يعيد ولا يبدي، يأكلون ما يجدونه من طعامهم ويأخذون ما يقدرون عليه من حلالهم وحرامهم".[229] ويبدو أن الطريق من العريش إلى القاهرة لم تكن آمنة حيث امتنع النابلسي ورفاقه عن المضي في طريقهم إلى القاهرة حتى أتى لنجدتهم فرقة من جنود مصر لحمايتهم من خطر العربان.[230]

وعلى ضوء هذه الرحلة يمكن القول بأن ما ورد فيها من معلومات يدعونا لإعادة تقييم الأوضاع العامة في القاهرة وكذلك تصحيح النظرة إلى أعيان مصر في مطلع القرن الثاني عشر الهجري بالاعتماد على مصادر الرحلات التي عاصرت تلك الفترة ومن أهمها كتابات المتصوفة، حيث يتوافق تقييم النابلسي بصورة عامة مع ما ينقله البكري الذي زار القاهرة بعده بستة وعشرين عاماً.

ج- أبو المواهب مصطفى بن كمال الدين بن علي البكري الصديقي، النحلة النصرية في الرحلة المصرية، (1132هـ/1719م):

وهي الرحلة التي ابتدأها البكري من مدينة نابلس قاصداً الديار المصرية في شهر شوال سنة 1132هـ/ سبتمبر 1720م، بصحبة رجب باشا[231] ووصف فيها غزة وما احتوت عليه من المفاخر، ثم أتى على ذكر الطرق والمسافات وما أقام فيه من البلدان ومدة الإقامة بها إلى أن دخل مصر، ثم وصف المزارات والمساجد التي

---

[228] المصر نفسه، ص 275-276.

[229] المصدر نفسه، ص 173.

[230] المصدر نفسه، ص 177.

[231] **رجب باشا:** كان محافظاً لحلب ثم عين باشا على مصر فدخلها في 25 ذو القعدة 1132 هـ/ أكتوبر 1720، ثم قام عليه عساكر مصر وعزلوه في غرة رمضان 1133هـ/26 يونيو 1721، وفي عهده أمر السلطان العثماني بتخصيص مبلغ خمسين كيساً (أي مليون ومائتين وخمسين ألف بارة) لترميم الجامع الأزهر. أحمد شلبي، **أوضح الإشارات**، مصدر سابق، ص.ص 314-316.

صلى بها، وذكر مشايخه ومن كاتبه منهم ومكاتباته مع غيرهم من معارفه وأصدقائه وذكر قصائدهم أشعارهم التي وصلت إليه، ونبذة من أشعاره. شرع في تسويدها في شهر شوال من السنة المذكورة، أما النسخة المحفوظة بدار الكتب فقد تم الفراغ من كتابتها ليلة الاثنين السادس من شهر جمادى الثانية سنة 1312هـ/ديسمبر 1894م.

وصاحب الرحلة هو مصطفى بن كمال الدين الصديقي البكري الدمشقي الحنفي الخلوتي القادري الشهير بالقطب البكري، صوفي رحالة، أديب، شاعر، مشارك في بعض العلوم، ولد بدمشق في ذي القعدة 1099هـ/1688م، ورحل إلى القدس وزار حلب وبغداد ومصر والقسطنطينية والحجاز، وتوفي بالقاهرة في 18 ربيع الثاني 1162هـ/1749م، وقد أحصى المرادي 222 عنواناً من تصانيفه في العقيدة والحديث والشعر والتصوف والرحلات، وغيرها من العلوم، وذكر البغدادي معظم هذه المؤلفات في **هدية العارفين**، وقد ذكر الزركلي بأنه قد رأى مجموع رحلاته في مجلد كبير أكثره بخطه ولكنه لم يذكر مكان وجود هذا المجلد.[232]
وأول ما يثير انتباه القارئ هو محافظة القاهرة على مكانتها وسمعتها التي لم تكن قد تغيرت كثيراً منذ أن قام النابلسي برحلته قبل ستة وعشرين عاماً، وذلك على الرغم من الحرب الأهلية التي وقعت سنة 1123هـ/1711م، فقد ذكر البكري تطلعه لزيارة القاهرة بسبب اشتهار سمعتها من بين جميع المدن الأخرى، ويمكن ملاحظة استمرار وجود العلاقات القوية التي كانت تربط بين أعيان السلطة السياسية والعلماء، حيث كان البكري على صلة مع رجب باشا محافظ حلب آنذاك، فيتحدث عن ذلك بقوله:
"طالما كانت النفس تتشوف وتتشرف لزيارة القاهرة التي محاسنها لغير محاسنها قاهرة وكنت إليها ولهاً أعلل فلا تتعلل بل تترجى وتؤمل... وفي شوال المبارك البدء والختام توالت أخبار لها عرف مسك الختام أن جناب الدستور المكرم والمشير المفخم الحاج رجب باشا تولى الديار المصرية ومراده زيارة الأراضي

[232] انظر ترجمته في الجبرتي، **عجائب الآثار**، ج 1، ص 165، المرادي، **سلك الدرر**، ج 4، ص.ص 190-200، البغداي، **هدية العارفين** ج 2، ص.ص 446-450، كحالة، **معجم المؤلفين** ج 12، ص 271، الزركلي، **الأعلام** ج 8، ص 141.

القدسية والخليلية ومنها يأتي إلى العريش ولجناح السفر إليها يريش، وهو من له صحبة ومودة أكدتها صداقة ومحبة منه من طويل مدة".[233]

وقد أشار البكري إلى عناية الباشا به شخصياً طوال الطريق من الشام إلى مصر، ولدى دخوله مدينة القاهرة عبّر البكري عن اندهاشه من الحركة العمرانية فيها قائلاً:

"شهدنا مدينة مدنية للأماني بالمباني الفاخرة ورأينا فيها أشياء كثيرة لم نرها في غيرها من المدن الشهيرة فتحققنا أنها بلدة جمعت محاسن خطيرة، ولم نقل كما نقل عن البعض أنها قرية كبيرة بل نقول كما قال الشافعي الحجة الواضح المحجة كنت أظن أن مصر في الدنيا فرأيت الدنيا في مصر".[234]

ويختلف البكري عن سابقه من حيث تركيز اهتمامه على زيارة القبور والمساجد وأضرحة الأولياء من جهة، وعدم اهتمامه الكبير بوصف الأوضاع العامة بمصر لدى تواجده فيها سنة 1132هـ/1719م من جهة أخرى، كما أنه يتكلف العبارات المسجوعة التي تضيع فرصة التعبير بصورة أفضل عما رآه المصنف على أرض الواقع، وبالرغم من ذلك فإنه يمكن للقارئ أن يحصل على مادة مهمة عن الأوضاع العامة بمصر آنذاك، فقد حل البكري أول الأمر في ضيافة شيخ السجادة البكرية، ثم انتقل بعد ذلك إلى دار أخرى لأحد أصدقائه بالقرب من قاعة خاصة بالسادة الوفائية، وابتدأ بعد ذلك مباشرة بزيارة السيدة نفيسة، ثم عرج على القرافة التي أمضى فيها معظم وقته يجول بين قبور الأولياء وينشد الأشعار فيهم ويذكر مآثرهم. ولكنه في الوقت نفسه اهتم بوصف بعض الأماكن العامة، كزيارته للمقياس في مصر العتيقة، بقوله:

"وكان بحر النيل في ازدياد على المعتاد، فأركبنا قياسة له صغيرة وأرسلنا للتفرج على المقياس، فسرنا بأنفس حقيرة فرأينا العمود الذي فيه مغطى بمياه فاقت علم الاسفنطا، ورأينا الماء نازلاً عما عليه كان لأنه فاض من الدرج الخارج وعمّ ساحة حولها المكان، ثم عدنا إلى محل الضيافة بعدما القلب قلب لين أخلاقه فإن أمواجه كانت كبيرة واختلافات أهويته كثيرة".[235]

وقد تميزت رحلة البكري بأن مصنفها قد أمضى وقتاً أطول من سابقه النابلسي في أقاليم مصر، حيث مرّ على وصف مقامات الأولياء في سمنود والمحلة الكبرى

---

[233] مصطفى البكري الصديقي، **النحلة النصرية في الرحلة المصرية**، مخطوط بدار الكتب بالقاهرة رقم: (651 جغرافيا) مجاميع، ص.ص 2-4.

[234] المصدر نفسه، ص 11.

[235] المصدر نفسه، ص 52.

والمنصورة ودمياط، ووقف على مسجد المليجي فأكثر من الثناء على إسماعيل بن إيواز بيك[236] الذي قام بترميم المسجد، وقد عرف عنه اهتمامه بالعلماء وإنفاقه عليهم، فقال فيه: "حباه الله الأنعام بالأطواس والأكواس، وكنت أحبه على محبته للخير وسد أبواب شر قبحها الغير، وعدم مسلكه للغرض الموجب للضير".[237]

ويمكن من خلال وصف البكري ملاحظة انعدام الأمن وتدهور الأوضاع في الأقاليم مقارنة بالقاهرة، ومن ذلك أنه عندما كان في قرية مليج: "جاءت السراق في الليل لكي يسطو على الخيل، فخيب الله تعالى مسعاهم".[238] ويشير المصنف كذلك إلى انتشار الفساد في صفوف الحامية حيث اضطر في طريق العودة لاستخدام إحدى السفن التابعة لعسكر مصر وكان بحارتها من الجنود المغاربة المدمنين على شرب الخمر دون إظهار أي تقدير أو احترام لمكانة الشيخ المرافق لهم، وازداد الأمر سوءاً بأن الرياح لم تكن تساعدهم على الإبحار فاستغرقت الرحلة معهم خمسة أيام حيث يصف البكري حالته آنذاك بقوله:

"وقد ضقت بطول الإقامة ذرعاً من أمر النجاسة فإنهم غارقون فيها حساً ومعنى إذ لا يعرفونها من الخساسة ... وطالت الكربة بسبب الغربة وضاق الخناق على الرفاق وتوسلت ليلة الزهراء بالحبيب الأعظم وكل نبي وصحابي وولي ومقدم وبسيدي أحمد البدوي الملثم أن يسوق لنا صبيحة يوم الجمعة الريح الملثم فنخلص من القبطان وجنوده جنود الشيطان إنه الحنان المنان".[239]

وبالرغم من أهمية هذه الرحلة فإنه لا يمكن العثور على أي جهد معاصر للاستفادة من المعلومات الواردة فيها، حيث إنها تقدم تصوراً مختلف عن الأوضاع العامة في القاهرة بخلاف الأقاليم. وقد بدأت تظهر في الآونة الأخيرة دراسات مخالفة للاعتقاد الشائع بأن مكانة مصر كانت في تدهور مستمر تحت الحكم العثماني، حيث تشير العديد من البحوث المعاصرة إلى أن مصر قد شهدت حالة من الازدهار الاقتصادي

---

[236] **إسماعيل بيك (ت1136هـ/1723م):** هو ابن إيواز بيك الكبير تابع مراد بيك الدفتردار، ورث السيادة على البيت القاسمي من والده،ونافسه في ذلك محمد جركس تابع إبراهيم بيك أبو شنب مما أدى إلى انقسام البيت القاسمي إلى فرعين رئيسين، هما: الإيوازية والشنبية. عرف إسماعيل بيك بكرمه وحسن تعامله مع علماء مصر. بشير زين العابدين، **النظام السياسي في مصر العثمانية**، مصدر سابق، ص 232.

[237] مصطفى البكري، **النحلة النصرية**، مصدر سابق، ص.ص 86-87.

[238] المصدر نفسه، ص 86.

[239] المصدر نفسه، ص.ص 146-151.

والانتعاش السكاني،[240] وقد ساعدها في ذلك موقعها الاستراتيجي كحلقة وصل بين قارات العالم الثلاث فواصلت التبادل التجاري مع مختلف الدول والأقاليم، وشهدت حركة زراعية نشطة حيث اشتهرت بتصدير الأرز والسكر، كما حافظت على مكانتها الثقافية التي فاقت مكانة دمشق وبغداد وغيرها من المدن العربية في ازدهار الحركة العلمية والأدبية فيها، وفي الوقت الذي قسمت فيه الأقاليم العربية تحت الحكم العثماني إلى صناجق وإيالات، حافظت السلطة العثمانية على مصر كإقليم موحد اعترافاً منها بأهمية هذا الإقليم الذي وضعت فيه أكبر حامية عسكرية وجعلت تحت سيطرتها موانئ مهمة مثل جدة والسويس والاسكندرية، كما عينت عدداً من كبار رجالاتها في منصب الباشوية بمصر منهم: سنان باشا ومسيح باشا وعدداً من الصدور العظام وكبار رجال الدولة باسطنبول الذين تولوا باشوية مصر في فترات مختلفة من الحكم العثماني.

ولو قمنا بالمقارنة بين كتابات المتصوفة عن الأوضاع بمصر في مطلع القرن الثاني عشر الهجري، مع ما كتبه الرحلات الغربيون في نفس تلك الفترة، فإننا سنلاحظ وجود تشابه كبير في المعلومات الواردة في كلا المصدرين، ففي سنة 1685م قام الرحالة الإنجليزي جوزيف بيتس بجولة في مصر فأسهب في الحديث عن ازدهار الحركة التجارية فيها، وتحدث عن وجود أجناس متعددة من التجار المغاربة والأتراك واليونانيين واليهود والأقباط، كما تحدث عن كثرة الخانات ووفرة البضائع في أسواقها وبالأخص منها الأرز الذي كان يزرع في مصر بكثافة وتصدر منه كميات كبيرة لمختلف دول العالم. وتتطابق شهادة بيتس مع ما ذكره النابلسي من أن غالبية مباني القاهرة تتكون من ثلاثة طوابق، كما يكرر الحديث عن انتشار المساجد والخانات وغيرها من المباني العامة بصورة ملفتة للانتباه.[241] ولا يختلف الرحالة ويليام دانييل في تقييمه للأوضاع العامة بالقاهرة خلال رحلته التي قام بها سنة 1700م، بالمقارنة مع ما ورد في رحلة البكري، حيث تحدث دانييل عن

---

[240] Crabbs, J.A*; "historiography and the Eighteenth Century Milieu",* in D. Crecelius; (ed.) **Eighteenth Century Egypt: An Account of Arabic Manuscript Sources**, Los Angeles, 1990. p.p. 9-24.

[241] W. Foster (ed.) **The Red Sea and Adjacent Countries**, London, 1949, pp. 10-17.

جدير بالذكر أن هذه الرحلة قد ترجمت إلى العربية، وتم نشرها سنة 1995، انظر: عبد الرحمن عبد الله الشيخ (ترجمة)، **رحلة جوزيف بيتس**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1995.

الحركة العمرانية والنشاط التجاري فيها بقوله: "لقد اعتبر كثير من المؤرخين بأن هذه المدينة هي الأكبر في العالم، وتحدثوا عن عدد المنازل والطرقات والمساجد والخانات والأسواق، ويمكنني أن أضيف بأنها تتمتع بحركة تجارية نشطة".[242]

وبناء على ما تقدم فإنه يمكن القول بأن القراءة المتفحصة لكتابات المتصوفة في تلك الفترة يمكن أن تسهم في إثراء البحث العلمي بجملة من الحقائق التاريخية حول العلاقة بين العلماء ورجال الإدارة والحكم بمصر، وكذلك عن حقيقة النفوذ الديني والسلطة الشرعية التي كان يمثلها علماء الأزهر والأشراف وشيوخ الطرق الصوفية مقابل السلطة الدينية الرسمية التي كانت الدولة العثمانية تحاول فرضها من خلال القاضي العسكر الذي كان يعين بفرمان سلطاني، كما أن هذه المؤلفات تساعد على تقديم مادة أساسية عن الأوضاع الاجتماعية في مرحلة تركز فيها اهتمام كتاب التراجم والأجناد بالشؤون السياسية والاقتصادية أكثر من تركيزهم على وضع المجتمع المصري، أما على الصعيد الثقافي فإن دار الكتب بالقاهرة تزخر بآلاف المخطوطات التي صنفها مشاهير المتصوفة في تلك الفترة - والتي تم اختيار هذه الكتب الثلاثة منها على سبيل المثال لا الحصر - ويمكن للباحث من خلالها تقييم الحركة العلمية في مصر بصورة أكثر دقة مما هو متاح للباحث المعاصر من خلال ما نشر من مخطوطات مدرستي التراجم والأجناد.

مصادر البحث:

1- إبراهيم بن أبي بكر الصوالحي العوفي الحنبلي، **تراجم الصواعق في واقعة الصناجق**، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1986.

2- أحمد الدمرداش، **الدرة المصانة في أخبار الكنانة**، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1989.

3- أحمد شلبي بن عبد الغني، **أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات**، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مكتبة الخانجي، القاهرة 1978.

4- إسماعيل باشا البغدادي، **هدية العارفين في أسماء المؤلفين**، اسطنبول 1951.

5- بشير زين العابدين، **النظام السياسي لمصر العثمانية**، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة لندن 1999.

6- توفيق الطويل، **التصوف في مصر إبان العصر العثماني**، القاهرة، 1945.

[242] ibid., p. 62.

7- جاد الله الغنيمي، **الدر النضير في أدب الوزير**، مخطوط رقم: 3549 أدب، بخط حسين محمد الريس، دار الكتب، القاهرة.
8- عبد الرحمن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، القاهرة 1904.
9- عبد الرحمن عبد الله الشيخ (ترجمة)، **رحلة جوزيف بيتس**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1995.
10- عبد الغني النابلسي، **الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز**، تقديم أحمد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
11- علي بن رضوان، **زبدة اختصار تاريخ مصر المحروسة**، مخطوط بمكتبة المتحف البريطاني، رقم:Add. 9972.
12- علي مبارك، **الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة**، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1969.
13- علي الشاذلي، ذكر ما وقع بين عساكر مصر المحروسة، تحقيق عبد القادر طليمات، **المجلة التاريخية المصرية**، مجلد 14 (1986)، ص.ص 321-403.
14- محمد فريد بيك المحامي، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، دار الجيل، بيروت، 1977.
15- مصطفى البكري الصديقي، **النحلة النصرية في الرحلة المصرية**، مخطوط بدار الكتب بالقاهرة رقم: (651 جغرافيا) مجاميع.
16- مصطفى بن الحاج إبراهيم تابع حسن آغا عزبان الدمرداشي، **تاريخ وقائع مصر القاهرة المحروسة**، تحيق صلاح أحمد هريدي، دار الكتاب والوثائق القومية، القاهرة 2002.
17- مصطفى رمضان، **مصادر تاريخ مصر الحديث**، جامعة الأزهر، القاهرة 1978، ص 83.
18- يوسف الملواني، **تحفة الأحباب بمن ملك مصر القاهرة من الملوك والنواب**، مخطوط رقم 5623 تاريخ، دار الكتب المصرية، القاهرة، وقد قام بتحقيقها ونشرها عبد الرحيم عبد الرحيم عبد الرحيم.

المراجع باللغة الإنجليزية:

1- ‘Abd al-Karīm Rāfiq, *‘Syrian Manuscript Sources for the History of Eighteenth-Century Egypt’* In D. Crecelius (ed.), **Eighteenth Century Egypt,** Los Angeles, 1990, pp. 103-114.

[2-] Crabbs, J.A*; "historiography and the Eighteenth Century Milieu",* in D. Crecelius; (ed.) **Eighteenth Century Egypt: An Account of Arabic Manuscript Sources**, Los Angeles, 1990. p.p. 9-24.

3- D .Crecelius; (ed.) **Eighteenth Century Egypt: An Account of Arabic Manuscript Sources**, Los Angeles, 1990.

3- W. Foster (ed.) **The Red Sea and Adjacent Countries**, London, 1949, pp. 10-17.